﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ١٢٣﴾ [الأنعام: 123]

❁ مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من الكُفر الفرديِّ إلى الإجرامِ العامّ؛ لبيانِ أثرِ الكفرِ في المجتمعاتِ

لمَّا ذكر ﷻ في الآية السَّابقة قولَه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وكان هذا التَّزيينُ خاصًّا بكلِّ كافرٍ، ناسبَ أن ينتقلَ إلى بيانِ ما يتعلّقُ بعمومِ المجرمين، فهو انتقالٌ من كفر الأفرادِ، إلى إجرامِ القائمين على المجتمعات، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ خطرَ الكُفر يتعدَّى صاحبَه ليصبحَ إجرامًا عامًّا، فالكفرُ يبدأ بضلالِ صاحبِه، وفسادِ اعتقاده وسلوكِه، ثم يبلغُ به إلى أن يصلَ إلى الإجرامِ العامِّ في المجتمعات؛ لإفسادِها وإخراجِها عن فطرة اللهِ التي فُطِرَ النَّاسُ عليها.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَكَٰبِرَ﴾: جمعٌ مكسّرٌ تحتَ بابِ منتهى الجموعِ، مفردهُ أكبرُ أو كبيرٌ، والجذرُ اللّغويُّ منهُ (كبر) ومعناهُ دالٌّ على العظمةِ، ومنهُ الكِبرياءُ للتّكبّرِ والعظمةِ، ومنهُ أيضًا التّقدّمُ في السنِّ، والكافُ والباءُ والراءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ، وقدْ يكونُ الكبَرُ بحسبِ المنزلةِ أو الرّياسةِ على سبيلِ الاستدراجِ كالواردِ في الآيةِ، وقدْ لا يكونُ كذلكَ إنّما يردُ من بابِ الاعتقادِ والظنِّ[1]، ومعنى الأَكَابِرِ في الآيةِ الرّؤساءُ والعظماءُ[2] من دُعاةِ الكفرِ.

2) ﴿لِيَمْكُرُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ مسندٌ

(1) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، ومقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (كبر).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 159.

إلى الجَمَاعَةِ، والجذرُ اللّغويُّ منهُ (مكر)، ومعناهُ دالٌّ على الاحتيالِ بخفّةٍ ومن غيرِ إضمارٍ، والميمُ والكافُ والرّاءُ دالّةٌ على الخداعِ والاحتيالِ، ومن معانيهِ الأخرى "صرفُ الغيرِ عمّا يقصدهُ بِحِيلَةٍ"، وجُعلَ هذا الصّرفُ على ضربينِ: محمودٍ وهوَ تحرّي الفعلِ الجميلِ، ومَذْمومٍ خِلَافَ ذلكَ ونَقِيضَهُ[1]، وعلى الجملةِ فالمشتركُ بينَ هذهِ التّعريفاتِ هو العملُ معَ الخفاءِ. ومعنى ﴿لِيَمْكُرُواْ﴾ في الآيةِ ليفعلوا "بغرورٍ منَ القولِ أوْ بباطلٍ منَ الفعلِ، بدينِ اللّهِ وأنبيائهِ"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما يصنعُه المجرمون منَ المكرِ بغيرهم يَرْتَدُّ عليهم

أي وكذلك صَيَّرْنا في كلِّ قريةٍ أشخاصًا من عُظمائها ورُؤسائها مِنَ المجرمينَ؛ ليمْكُرُوا فيها، بأن يدعُوا النَّاسَ إلى الكُفْرِ والجحود والضَّلالةِ، وأن يصدّوا النّاسَ عن سبيلِه تعالى، وما علمُوا أنّ مكرَهم عائدٌ عليهم جَزاءً وِفاقًا.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّه لا ينبغي للعاقل الفَطِنِ، أَن يتبعَ زُعماءَ الشَّرِّ في غَوايتِهم، بل يتدبَّرُ فيما يعودُ بالخير على نفسِه أَو على النّاس فيتبعُه، وفيما يعودُ بالشّرّ - عليه أَو عليهم - فيتنكّبُ طريقَه؛ فقد بيَّن اللّه نَدَامَةَ الذين يتبعون الكبراءَ يومَ القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: 67][3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾:

الواوُ للعطفِ لسببٍ آخرَ من أسبابِ ضلالِ المشركين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ عاطفةٌ الجملةَ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (مكر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/93.
(3) مجموعة من المؤلفين، التفسير الوسيط: 3/1319.

لِبَيَانِ سَبَبٍ آخَرَ مِنْ أَسْبَابِ اسْتِمْرَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى ضَلَالِهِمْ، وذَلِكَ هو مَكْرُ أَكَابِرِ قريتِهم بالرّسول ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ وَصَرْفُهُمُ الحِيَلَ لِصَدِّ الدَّهْمَاءِ عَنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ [1] ﷺ.

بلاغةُ التَّشبيهِ وتعيينُ المُشارِ إليه باسمِ الإشَارَةِ في قولِه: ﴿كَذَلِكَ﴾:

شـأنُ المجرمين المكرُ بأهلِ الحقّ على مدار التّاريخ

الكافُ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ يفيدُ التّشبيهَ؛ فقد شبّهَ أكابرَ المجرمين من أهلِ مكّةَ بأكابرِ المجرمينَ من أهلِ القُرى في الأمم الأخرى بجامعِ الشّركِ باللهِ[2] مُنوّهًا إلى أنَّ أمرَ هؤلاءِ ليسَ بِدْعًا ولا مختصًّا بأهلِ مكّةَ، "بلْ ذلِكَ شأنُ الأكابرِ المترفينَ المتكبِّرينَ في كلِّ أمَّةٍ"[3]، وهيَ سنةٌ قضاها اللهُ على الأنبياءِ والمرسلينَ.

معنى الجَعْلِ ودلالةُ إسنادِه إلى ضميرِ العظمةِ في قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾:

صـراعُ المؤمنين مـع أكـابـرِ المجـرمـين من سُـنـنِ الـلـه الكونيّةِ

فعلُ الجعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ يحتملُ أن يكونَ دالًّا على الخلقِ والإيجادِ ووضعِ سُننِه تعالى الكونيَّةِ في أسبابِ الخيرِ وأسبابِ الشرّ في كلّ المجتمعاتِ والأممِ[4]، فجعلنا بمعنى: خلقنا وأوجدنا، ومفعولُه واحدٌ هو ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، وإسنادُ الجعلِ إلَى ضَميرِ العظمةِ لتهويلِ الأمرِ وتربيةِ المهابةِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ بمعنى التّصييرِ والتّحويلِ[5]، أيْ: تصييرُهم أكابرَ مجرمين، فالفعلُ يتعدّى إلى مفعولين؛ الأولُ مجرميها والثاني أكابرَ، ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وقدّمَ ما هو أهمُّ؛ باعتباره سببَ الإجرام؛ فإنَّ الكبرَ يحملُ المجرمَ على بلوغِ أعلى درجاتِ الإجرام، ويصحُّ أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ47.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ47.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/28.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ47.
(5) القصاب، النكت الدالة على البيان: 1/370.

يكون المفعول الأوّلُ ﴿أَكَٰبِرَ﴾، و﴿مُجْرِمِيهَا﴾ مضافٌ، والمفعول الثاني قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾[1].

نكتةُ تقديمِ ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ على ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾:

لا يخلُو زمانٌ من وجودِ أكابرِ المجرمين، تلك سُنّةُ الله الماضيةُ

قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ على ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾؛ لنكتةٍ وهي الإشارةُ إلى القريةِ، وأنَّ الفسادَ سيغلبُ عليها ويتفاقمُ ضررُهُ، وفيهِ إيماءٌ إلى الرَّسُولِ ﷺ بتركِ هذهِ القريةِ، وهو إيذانٌ بزوالِ سيادةِ قريشٍ عليها بعدَ إذْ تولاها الكبراءُ المجرمونَ، فبقاؤهمْ على الشّركِ والضّلالِ صيّرَهمْ مجرمينَ[2]، وفيه إشارةٌ إلى عُموم هذه السُّنَّة في كلّ الأزمانِ، وأنَّ على أتباعِ الأنبياءِ والرُّسل أن يعلموا أنَّه لن يخلوَ زمانٌ من أكابر المجرمين، وأنَّ هؤلاء المجرمين يُتابعون سابقِيهم ممَّن اندثروا عقوبةً وعذابًا.

براعةُ إيثارِ إفرادِ ﴿قَرْيَةٍ﴾ بعدَ أداةِ العُمومِ بدلًا منَ الجمعِ:

إفرادُ القريةِ يدلُّ على العنايةِ بالتَّفاصيلِ وأنَّه لا توجدُ قريةٌ خرجت عن هذه السُّنَّة

آثرَ التعبيرُ إفرادَ لفظةِ ﴿قَرْيَةٍ﴾ بعدَ لفظِ ﴿كُلِّ﴾ الدّالِّ على العمومِ في قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، فإنّ القولَ يحتملُ (في كلّ القرى)؛ وذلك لِلَفْتِ الأنظارِ إلى أنّ الأمرَ مَبْنِيٌّ على التفصيلِ لا الإجمالِ "لأنَّها القريَةُ الحاضرَةُ الَّتي مُكِرَ فيها، فالمقصودُ الخصوصُ ... وإنَّما عمَّمَ الخبرَ لقصدِ تذكيرِ المشركينَ في مكَّةَ بمَا حلَّ بالقُرَى منْ قبلِها مثلِ قريةِ الحِجْرِ وسبأٍ والرّسّ"[3]، وإنّ ممّا يُرَشِّحُ ذلكَ ويقوّيهِ تأخيرَ المفعولِ في ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾.

نكتةُ تقديمِ المفعولِ الثّاني ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ على المفعولِ الأوّلِ ﴿أَكَٰبِرَ﴾:

على اعتبارِ جَعْلِ فعلِ الجعلِ بمعنى التّصييرِ وتعديتِه إلى مفعولين

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/341.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ49.

هما ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ فإنّ في ذلك تغييرًا في رتبةِ المفعولين؛ فقد قُدّمَ المفعولُ الثّاني ﴿أَكَٰبِرَ﴾ على المفعولِ الأوّلِ ﴿مُجۡرِمِيهَا﴾، ونكتةُ تقديمه: الاهتمامُ به؛ لغرابةِ شأنه؛ فإنّ مصيرَ هؤلاءِ منَ الأكابرِ والسّادةِ أمرٌ عجَبٌ، فهم ليسوا بأهلٍ للرّياسةِ والسّيادةِ[1]، كما قالَ الشاعرُ[2]:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ *** وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ *** فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ

الاهتمامُ المُؤْذِنُ بالغرابةِ والعَجبِ منْ مصيرِ هؤلاءِ الأكابرِ

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الجَمْعِ ﴿أَكَٰبِرَ﴾ دونَ (كبراء)، أو (كبار):

استُعمِلَت صيغةُ الجمعِ ﴿أَكَٰبِرَ﴾ ولم تُستعملْ (كبراء) أو (كبار)؛ لأنّه ما أرادَ استعمالَ الصّيغةِ الدّالّةِ على التّفضيلِ، فهي صيغةٌ لا تفيدُ الزّيادةَ في السّنّ أو الحجمِ[3]، وهي كلمةٌ لا يُقصدُ بها المفاضلةُ بل أرادَ الوصفَ مطلقَ الوصفِ خلافَ غيرِها[4].

يُرادُ بها مطلقُ الوصفِ وغيرُ دالّةٍ على التّفضيلِ

توجيهُ تخصيصِ الأكابرِ بالذّكرِ دون الأصاغرِ في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾:

في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ إيجَازٌ؛ لِأَنَّ المَعْنَى: جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمِينَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَكَابِرَ؛ فَلَمَّا كَانَ وُجُودُ أَكَابِرَ يَقْتَضِي وُجُودَ مَنْ دُونَهُمْ اسْتَغْنَى بِذِكْرِ أَكَابِرِ المُجْرِمِينَ[5]، عَنْ ذِكْرِ أَصَاغِرِهِمْ، وذلك أنَّ أصحابَ القرار هم الأكابرُ لا الأصاغرُ، ولأنّهمْ لأجلِ رياستِهمْ وسَعةِ عيشِهمْ والحفاظِ على سلطانِهمْ فهمْ أقدرُ على المكرِ، وأدعى إلى الغَدرِ؛ ولأنَّ المالَ والجاهَ يحملان الإنسانَ على المبالغةِ في المحافظةِ عليهما؛ ولا يكونُ ذلكَ إلَّا بغالبِ الأخلاقِ الذّميمةِ منْ مكرٍ وغدرٍ وكذبٍ وسواها[6].

الأكابرُ هم أصلُ الفسادِ، والأصاغرُ أتباعٌ رِعاعٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 48/أ8.

(2) الأفوه الأودي، ديوانه، ص: 66، ونسبه ابن عاشور إلى طُفَيل الغَنَويِّ، وينسب كذلك إلى أبي الأسود الدُّؤلي، وهو مثبت في ديوان الأفوه، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة: 1/217 وغيرها من المصادر.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 50/أ8.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/166.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 50/أ8.

(6) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/288، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/135.

فائِدةُ إيثارِ لفظِ الإجرامِ دُونَ الإفسادِ في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾:

الإجـــرامُ هو العـمـلُ الـذي ينتظمُ الفسادَ وسيِّئَ الأعمالِ

ومعَ أنّ الإفسادَ هو الأشيعُ استعمالًا في مثلِ هذه السّياقاتِ من القرآنِ، وهو الواردُ في آياتٍ كثيرةٍ، إلَّا أنَّ في إيثارِ لفظِ الإجرامِ دونَ الإفسادِ في قولِه تعالى: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ فائدةً، فإنّ المجرمينَ هم فاعلو الإجرامِ، وهو العملُ المشتملُ على الفسادِ والسّوءِ والضّررِ منَ الأعمالِ[1] وعلى ذلك فإنّ التّعبيرَ بالإجرامِ أشملُ وأعمُّ منَ الإفسادِ، كما أنَّ الإجرامَ هو أداةُ الإفسادِ القَهريِّ، فالمجرمُ يُمارسُ إجرامَه إفسادًا وإهلاكًا للنَّاسِ، فإذا ذُكرَ الإجرامُ فالإفسادُ حاضرٌ، بخلافِ العكسِ.

نكتةُ إضافةِ المجرمينَ إلى ضميرِ القريةِ في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾:

الالـتـزامُ بمنهجِ الـــقـــرآنِ هـو الطريقُ الأسلمُ في التَّعاملِ مع المجرمينَ

في إضافةِ المجرمينَ إلى ضميرِ القريةِ في قولِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ دون أن يقول: (أكابر المجرمين)، نكتةٌ بيانيَّةٌ؛ فإنّه لا تخلو قريةٌ منَ المجرمينَ أكابرَ وأصاغرَ، وإنّما اقتصرَ على الأكابرِ لما سبقَ من علٍ؛ فلذلكَ أضافَ الضّميرَ العائدَ على القريةِ إلى المجرمينَ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى المؤمنينَ بأن الإجرامَ موجودٌ لا مناصَ منه، وعليهم أن يعُوا ذلك جيدًا، فيعملوا على سنَا المنهجِ القرآنيِّ في التّعاملِ مع المجرمينَ؛ وَفقًا لما شرّعهُ اللّه لا على ضوءِ اجتهاداتِهم الفرديّةِ المعرَّضةِ للخطأِ والصّوابِ.

نوعُ اللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ﴾:

الـــلّامُ لامُ الـتَّـعـلـيـلِ وتـحـتـمـلُ أن تكونَ للعاقبةِ

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ متعلقةٌ بالفعلِ ﴿جَعَلْنَا﴾، والمعنى: ليحصلَ المكرُ ويتحقّقَ من غيرِ إرادةٍ منهم ولا قصدٍ فهيَ لَامُ التَّعْلِيلِ، فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ مُرَادِ اللّهِ تَعَالَى مِنْ وَضْعِ نِظَامِ وُجُودِ الصَّالِحِ وَالفَاسِدِ، أَنْ يَعْمَلَ الصَّالِحُ لِلصَّلَاحِ، وَأَنْ يَعْمَلَ الفَاسِدُ لِلْفَسَادِ، وَالمَكْرُ مِنْ جُمْلَةِ الفَسَادِ، وَلَامُ التَّعْلِيلِ لَا تَقْتَضِي الحَصْرَ،

(1) رضا، تفسير المنار: 8/28.

فَلله تَعَالَى في إيجَادِ أَمْثَالِهِمْ حِكَمٌ جَمَّةٌ، مِنْهَا هَذِهِ الحِكْمَةُ، فَيَظْهَرُ بِذَلِكَ شَرَفُ الحَقِّ وَالصَّلَاحِ وَيَسْطَعُ نُورُهُ، وَيَظْهَرُ انْدِحَاضُ البَاطِلِ بَيْنَ يَدَيْهِ بَعْدَ الصِّرَاعِ الطَّوِيلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اللَّامَ المُسَمَّاةَ لَامَ العَاقِبَةِ، وَهِي فِي التَّحْقِيقِ اسْتِعَارَةُ اللَّام لِمَعْنَى فَاءِ التَّفْرِيعِ كَالَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصَص: 8][1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمكرِ لا بالإجرامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾:

سرُّ التّعبيرِ بالمكرِ لا الإجرامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ مع أنَّ مقتضى الظاهرِ استعمالُ: (ليجرموا فيها)، فيُسألُ عنْ سرِّ التّعبيرِ بالمكرِ دونَ الإجرامِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ المكرَ هو طريقُ الإجرامِ الخفيِّ؛ فلا يوجدُ إجرامٌ منْ غيرِ وجودِ مقدّماتِه ومنها المكرُ والخديعةُ، وليسَ ضرورةً أنْ يكونَ الإجرامُ عملًا عنيفًا مثلما ينصرفُ الذّهنُ إليه عندَ إطلاقِ لفظِ الجريمةِ ونحوِها، بلْ قدْ يكونُ قولًا خبيثًا وكلمةً منتنةً ودهاءً ماكرًا يصلُ بهِ صاحبُه إلى الإجرامِ نهايةَ المطافِ، فالآيةُ تحذّرُ منَ المكرِ إذْ هو منْ إرهاصاتِ الإجرامِ، فالإجرامُ نوعان: ظاهرٌ وخفيٌّ، فالظّاهرُ هو الإجرامُ المعهودُ، والخفيُّ هو المكرُ.

المكرُ إجرامٌ خفيٌّ وهو طريقُ الإجرامِ الظّاهر

نوعُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ واوُ الحالِ، أي: أنّهم يضرّونَ أنفسَهم في الحالِ التي يمكرونَ فيها[2].

لا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهلِه

دلالةُ القصرِ وبلاغتُه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ تعبيرٌ دالٌّ على القصرِ الإضافيِّ، وهو قصرٌ لقلبِ اعتقادِ المخاطبينَ في أنْ يلحقَ النَّبيَّ

لا يضرُّ المكرُ إلّا صاحبَه، ولا يعودُ إلا عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ48.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 2/319.

ﷺ ضررٌ منْ مكرِ هؤلاءِ، بلْ إنَّ الضّررَ سيلحقُ الماكرينَ في الدّنيا بالقتلِ والأسرِ، وفي الآخرةِ بعذابِ النارِ، وإنَّ ضررَ المكرِ مقصورٌ عليهمْ إنْ لمْ يؤمنوا[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَمْكُرُونَ﴾:

مـكـرُ المجـرمين مـتـجـدّدٌ في أساليبه مستمرٌّ في مضمونِه

آثر النَّظمُ استعمالَ الصّيغةِ المضارعيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بدلًا منَ الماضي معَ أنّ المقامَ مقامُ تحقيقِ المكرِ فيهم، ونكتةُ ذلكَ: الإيذانُ بأنّ المكرَ أمرٌ متجدِّدٌ على مدى العصورِ وتمادي الأزمانِ والدّهورِ، وأنّ الحكمَ جارٍ في تطوّر مكرِهم وتنوّعِ أساليبه في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في لفظِ (المكْرِ):

مآلُ المكرِ إضرارُ الماكر بنفسه

التّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَمْكُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من بابِ المجازِ المرسَلِ، وعلاقتُهُ: اعتبارُ ما سيكونُ في المستقبلِ، فأُطلقَ المكرُ وأُريدَ به الضُّرُّ؛ فإنَّ غايةَ المكرِ ومآلَه على صاحبِه إضرارُ المكورِ بهِ، فلمّا كانَ الإضرارُ يحصلُ للماكرِ دونَ المكورِ به أطلقَ المكرَ على الإضرارِ[2].

دلالةُ استعمالِ النَّفْسِ بِصِيغةِ (أنفُس):

الأنـفـسُ جمعُ قـلّـةٍ والمجرمون كـذلـكَ، وفي هذا توهينٌ لهم وتحقيرٌ لشأنِهم

لفظُ (أنفُس) وهي من جموعِ التّكسيرِ على زِنة (أفْعُل) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ دالٌّ على القلّةِ[3]، فعبّرَ بهذا اللّفظِ للدّلالةِ على أنّهم قلّةٌ، وهم كذلك، فأكابرُ القومِ ورؤساؤهم هم الفئةُ القليلةُ في المجتمعِ، وذكرُهم بهذا اللفظِ توهينٌ لهم وتحقيرٌ لِشَأْنِهِمْ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ51.
(3) الزمخشري، المفصّل، ص: 235.

نوعُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

حالُ المُجرمِ فقدُ الشُّعور عندَ المكر

الواوُ الدّاخلةُ على الفعلِ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ هي واوُ الحالِ، فالجملةُ حالٌ ثانيةٌ، فإنّهمْ في الحالِ التي يمكرونَ فيها بالرسولِ ﷺ، فإنّهمْ لا يمكرونَ إلّا بأنفسِهمْ منْ غيرِ شعورٍ منهمْ بعاقبةِ مكرِهمْ وأنّ ضررَه راجعٌ عليهم[1].

سرُّ إيثارِ استعمالِ الشُّعورِ دونَ العلمِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

تشبيهُ المجرمين بالعجماوات عند قيادتِها إلى هلاكِها

آثرَ استعمالَ (يشعرونَ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ دون أن يستعملَ (يعلمونَ)، وسرُّ ذلكَ أنَّ الشّعورَ هو الإحساسُ بالأمورِ الدّقيقةِ كدقّةِ الشَّعرِ؛ ولهذا يقالُ للشّاعرِ شاعرٌ؛ لأنّهُ يفطنُ لدقّةِ المعاني، وسياقُ الجملةِ يُعينُ على ذلك؛ فإنَّ المكرَ له تعلقٌ مَعْنَوِيٌّ بالشّعورِ لا بالعلمِ؛ لأنَّ المكرَ مقترنٌ بالخفاءِ، والخفاءُ والدقّةُ متشابهانِ، ثمَّ إنَّ التّعبيرَ بالشّعورِ هنا من بابِ المبالغةِ في الذّمِّ؛ فإنَّ وصفَ الإنسانِ بعدمِ الشّعورِ أشدُّ ذمًّا منْ وصفِه بعدمِ العلمِ[2]؛ لأنَّه نزَّلهم منزلةَ العجماوات، بعدم الشُّعور إذا انقادت إلى حتفِها.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ والتَّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ في: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

من لَزِمَ مكرَه في إجرامِه فقد حَكَم على نفسِه بمشابهة العجماوات

حُذِفَ مفعولُ الفعلِ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لدلالتِه على العموم، ولاكتمال ذمِّ الموصوفين، فهم لا يشعرون بأدنى شعورٍ ممَّا يُشعرُ به، لا شعورَ العقلاء، ولا شعورَ البهائم، ودلَّت صيغةُ المضارعِ على التّجدّدِ والاستمرارِ فعدمُ شعورِهم دائمٌ متجدّدٌ ما داموا على الحالةِ التي هم عليها منَ الإجرام والمكر.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 51/أ8.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 81.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القرية والمدينة:

القريةُ هيَ البلدُ الجامعُ للنّاسِ والمدينةُ ما كانَ الحصنُ مُحِيطًا بها

وردَ ذكرُ القريةِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، ومعنى القريةِ: "البلدُ الجامعُ للنَّاسِ، ويُستعملُ في التَّنزيلِ بمعنَى العاصمةِ في عُرفِ هذا العصرِ"[1]، أمّا المدينةُ فهي من مَدنَ إذا أقامَ بالمكانِ، والمدينةُ هي الحصنُ الذي يُبنى وسطَ المكانِ من أجلِ الامتناعِ والتّحصّنِ منَ الأعداءِ، ثمّ أُطلقتْ في القرآنِ الكريمِ على العواصمِ والأمصارِ الجامعةِ، ويُلحظ في الفرقِ بينها وبينَ القريةِ خُلوُّ الثّانيةِ من وصفِ التّحصّنِ[2].

المكر والخديعة:

المكرُ فعلٌ يسبّبُ الضّررَ للآخرينَ، والخديعةُ قدْ تكونُ لاجتلابِ نَفعٍ أوْ دفعِ ضررٍ

المكرُ شبيهٌ بالكيدِ، ولا يكونُ إلَّا معَ التّخطيطِ والتّدبيرِ، إلا أنَّ الكيدَ أقوى منه[3]، وهو يتسبّبُ في الضَّررِ بالآخَرينَ، أمّا الخديعةُ فهيَ أنْ تُظهرَ خلافَ ما تنطقُ بهِ لغرضِ اجتلابِ نفعٍ أوْ دفعِ ضررٍ، ولا يقتضي التّدبّرَ والتّفكّرَ فيه[4]؛ فالمكرُ إذنْ أقوى أثرًا منَ الخديعةِ وهو أنسبُ للواردِ في الآيةِ.

الفهم والشُّعور:

الشُّعورُ متعلّقٌ بالحسِّ ويتساوى فيهِ الإنسانُ والحيوانُ، والفهمُ أوّلُ مراحلِ الإدراكِ العقليِّ

الفهمُ هو العلْمُ بالمعاني المستنبطةِ منَ الكلامِ؛ لذلكَ يقالُ: إنَّ فلانًا بطيءُ الفهمِ إذا كانَ يسمعُ لكنّهُ لا يعِي ولا يعلَمُ ما سمعهُ[5]، أمّا الشّعورُ فإنّهُ ابتداءُ مراحلِ العلمِ، ويكونُ بالحسِّ الماديِّ، ومنهُ اشتُقَّ الشُّعورُ منَ الشَّعْرِ، وهو ما يلِي البدنَ[6]، فالفرقُ بينهما كالفرقِ بينَ الإحساسِ والإدراكِ في أنَّ الأوّلَ متعلّقٌ بالحسِّ والاستشعارِ والثّاني

(1) رضا، تفسير المنار: 8/28.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مدن).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 508.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 213.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 414.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 373.

متعلّقٌ بالعقلِ، ووصْفُ الماكرينَ بأنّهمْ لا يشعرونَ فيهِ منتهى الذمِّ لهمْ؛ لأنَّ الشُّعورَ أوّلُ مراحلِ العلم يتساوى فيهِ الإنسانُ والحيوانُ، فما بالك بالإنسانِ وقدْ نُفِيَ عنهُ الشُّعُورُ؟ سيوصفُ بأنَّ البهائمَ أفضلُ منهُ في شعورِها وهذهِ مبالغةٌ في ذمّهِمْ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»